

قضية اللغة العربية

للأستاذ أحمد خاكي

يرى الكاتب أن اللغة ينبغي أن تكون لغة معان قبل أن تكون لغة الفاظ . وأن تعليمها ينبغي أن يرمي إلى ثلاثة أغراض : أولها التدريب العقلي ، وثانيها الخبرة الحسية أو الجالبية ، وثالثها الوجهة النفسية . وهو يبحث في بعض وسائل تعليم اللغة العربية وينقدها في هذا المقال

١ - أصول نصبة لتعليم اللغات

إذا نحن عالجنا الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلم اللغة العربية ، وجدنا أنها شعبة من الخطط العامة التي ترسمها المربون وعلماء النفس في العصر الحديث . ويسيطر على التربية في هذا العصر مدرستان متكافئتان من مدارس الفكر : أولاهما يتزعمها فرويد ، وثانيتهما كان زعيمها يافلوف

ويذهب الأولون إلى أن النفس جماع الفرائز والميول الفطرية ، وهذه تأتلف في أحيان وتختلف في أحيان أخرى . ولقد اتجهت التربية في هذا العصر وجهة من يحاول أن ينشئ تلك الميول سواء أكان ذلك بالاستعلاء بها أم بالتهدي إليها . وقامت فلسفة التربية على أساس من تلك الفرائز المتوافقة المتناكرة ، بل لقد كان فتحاً جديداً في التربية أن أصبح الطفل موضع العناية عند المربين . ولعل روسو وأضرابه من فلاسفة القرن الثامن عشر كانوا أول من نادى بتربية الطفل كطفل ، وأول من هيا السبيل للعلماء المحدثين . على أن تلك المسألة قد اختلفت بين الفلسفة والأدب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، حتى قام فرويد بؤصل أصولها النفسية في السنوات القليلة الماضية . وهنا ظهرت في التربية مبادئ الحرية التي تحاول أن تسير ميول الطفل وغرائزه ، وذهب المربون يصطنعون وسائل التعليم على هدى تلك المبادئ الحديثة ، فأفلحوا في اسطناع الكثير منها فيما يتصل بكل فروع المعرفة ومنها اللغات .

والطفل عند هؤلاء عامل كبير في تربية نفسه ، فليس هو جهازاً مستقبلاً ، وليس موقفه سلبياً محضاً ، وليس ينعم بتلك القابلية التي تستوعب أي شيء وكل شيء من غير أن يكون له من نفسه سلطان على ما يعلم وما يعمل ، وإنما نفسية الطفل عندهم

فعالة مؤثرة ، فهو تتنازعها الهواجس والمواطف والميول . وعليها نحن أن نبسط له من المعلوم ما يترواه وينعم به . أما وسائلنا فغيرها ماساير ميول الطفل حتى يدفعه الشوق إلى الاستزادة من ألوان المعرفة ، وحتى يصبح تعليمه داخلياً فملاً لا خارجياً لا يكاد يتدنى إلى الصميم

وإلى جانب تلك المدرسة النفسية الغامرة ظهرت مدرسة أخرى تؤمن بالفرائز والميول أيضاً ، لكنها تؤمن فوق كل ذلك بما يسمونه الأفعال المنعكسة reflex actions وتلك مدرسة العالم النفسي يافلوف ؛ فلا يذهب هؤلاء في تقدير الفرائز مثل ما يذهب أصحاب فرويد ولا يعمنون في تقديرها مثلما يعمن الأولون ، وإنما يضمونها جنباً إلى جنب مع الأفعال المنعكسة التي يستطيع أن يكسبها الطفل ، ويؤمن هؤلاء بأن الفرائز والميول قابلة للتعديل عند الإنسان وأنه قد يكسب نوعاً خاصاً من المهارة إذا هو وضع تحت مؤثر دائم متكرر . فالتقليد والتكرار والمراجعة كل أولئك جديرة بأن ترشد التعلم إلى إحسان المهارات وهي جديرة بأن تكون أساساً ثابتاً لمعوم كسب المهارة ومدرسة يافلوف ومدرسة فرويد كلانها على حق . وهما في ذاتهما تمثلان وجهتي نظر مختلفتين لكنهما متكاملتان . أما الأولى فهي تمثل الحرية في التربية ، وأما الثانية فهي تمثل النظام . الأولى تعترف بملكات الطفل وقواته ، والثانية تحاول أن تشيع نظاماً خاصاً يأتلف تلك الملكات ، والأولى تسمح للطفل بأن ينمي كل ما وهب من مدارك ، والثانية تربط تلك المدارك بعضها ببعض حتى تصبح موثوقة الأجزاء مرتبطة الأطراف

والآراء النفسية التي يذهب إليها الفريقان تخلق دستوراً بأكمله يجتلي فيه أحسن الوسائل لتعليم اللغات ، فاللغة من ناحية ينبغي لها أن ترتبط بالميول والفرائز التي يجتمع لدى الطفل . وينبغي أن تكون مادتها بحيث تهز مشاعره وتحرك أعطاف قلبه ، وهي من ناحية أخرى إحدى المهارات التي يكسبها الأطفال كأى فعل منعكس آخر ، ولئن يتأتى ذلك حتى يكون إحسانها نتيجة لمؤثر أو باعث شديد دائم متكرر . من هذين الوجهين ينبغي لنا أن نثبت الوسائل التي تكفل إدراك الغايات من تعلم العربية . وسنرى في نقد وسائل التعليم الحاضرة أنها بعيدة كل البعد عن ميول التلاميذ من جهة ، وأنها لا تقوم على بواعث شديدة متكررة من

جهة أخرى ، وأن تعليمها عندنا لن يستقيم حتى نداول بين هذين الوجهين من وجوه التربية الحديثة

٢ - طرق التعليم

تتصل طرق تعليم اللغات إذن بميول الانسان وغرائزه . وقد بحث البريون أقرب تلك الميول وأكثرها مواتاة فوجدوا أن اللعب يجلوها ، واتخذ كثير من المربين وسيلة من وسائل التعليم ، واللعب بمعناه النفسى فيض من النشاط الذى ينعمر نفس الطفل ، وهو أشد أثاراً فيها من العمل . فالعمل يفرض فرضاً لكن اللعب بادرة من وحي النفس ، وللعمل غرض قد يكون نفعياً بقصد النشاط ويبحث النفس ، ولكن اللعب لا يعرف لنفسه حدوداً ، ولا ينقلب شراً إلا إذا أصبح عبثاً غير محمود . وفي اللعب تنتظر قوى الأطفال بأكامها وتتوافى مداركهم ، واللعب فى المدرسة الحديثة وسيلة للعمل فإذا أفلح معلمو اللغات فى اتخاذه وسيلة لتعليمها حققوا ما ذهب إليه علماء النفس وربطوا اللغة بالميل الفطرية ربطاً محكماً لا انفصام له

ولعل القصة أول أنواع اللعب التى نستعين بها فى تعليم اللغة . وعند الطفل ميل طبيعى للتمثيل . ولنا نقصد بالتمثيل ذلك النوع المسرحى الذى يحسنه الممثلون ، وإنما نقصد ما يميل إليه الأطفال من إحلال أنفسهم محل بطل القصة أو بطلها . وأنت إذا بحث عقيدة الطفل — بل إذا تعمقت عقائده الأدبية — وجدت أنها خليط من الحقيقة والخيال . فى القصة يتمثل القارئ أو السامع نفسه فى الشخصية الروائية التى يميل إليها . فالبطل بصفته فتاة ، والبطل يقود أمة نحو المجد ، والبطل كثير الحيلة أيد شجاع ، وخلال القصة نملو عقيدة الطفل حتى ليحسب الخيال واقعاً ، وحتى ليتدخله الزهو فيخال نفسه بطلا . ذلك عندنا نوع اللعب الذى يدفع بالناشئين إلى القراءة ، فهو يستغرق تفكيرهم ، وهو يستهلك جهدهم . وهو بعد ذلك دعامة لا تترايل من دعائم اللغة

ولنا ندري من اللوم على حالة الكساد التى قضت على أدب الطفولة عندنا ، لكما نرى عند الطفل الانجليزية آلاف الكتب الجميلة التى تزخر بالصور والرسوم . والطفل الانجلىزى يتمتع فى صباه بما يرى وعما يقرأ ، وهو يندفع وراء القراءة بوحى نفسه ، لأن كل هذه الكتب تصادف هواه ، لكن الطفل المصرى محدود الاختيار . فالدرسة لا تترف بما يقرأه فى الخارج مهما بلغت

عنايته بالقراءة ، وهو لا يجد إلا قليلاً من القصص المترجم إذا شاء أن يقرأ ، وإنه ليصرفه عن القراءة تبرم بعض المدرسين بالقصة ووصفها بأنها نوع من أنواع العبث . هذا على أنه لا يجد « مكتبة » من القصص ، لأن وزارة المعارف هى التى تحكم معائر الأمور فى التعليم ، ولأن وزارة المعارف لم تتعن من مراكزها الاعتراف بالقصة أداة للتعليم فى العربية ، ولو أنها اعترفت بها أداة للتعليم فى الانجليزية منذ زمن بعيد

عالم المسترمان Mann خبير التربية هذه المشكلة فى تقريره عندما تحدث عن الفرق بين لغة الحديث ولغة الكتابة فى مصر . وعنده أنه لن ترقى لغة الكتابة فى مصر ولن ينقص الفرق بينها وبين لغة الحديث حتى تخلق أدباً قائماً للأطفال يتضمن مادة جذابة توافق عقل الطفل . ويبنى لكتب الطفولة فى رأيه « أن تحتوى تلك القصص ذات اللون الخاص التى تتمثل فى أدب كل شعب من الشعوب » . والحق أن العربية ذات أدب شعبي تمثله كتب كالف ليلة وليلة . لكن ألف ليلة وليلة طبع بالانجليزية مئات المرات فى أشكال وأحجام جميلة مختلفة . وقد بلغ من عنايتنا الضئيلة بمثل هذا الكتاب أننا بدأنا الآن فقط بترجمة ترجماته الانجليزية إلى العربية . ومثل هذا يقال فى القصص الأخرى التى انتقلت فى عصر النهضة من الشرق إلى الغرب

ولقد يطول الحديث بنا إذا نحن استرسلنا فى الكتابة عن تقصيرنا فى خلق أدب الطفولة . وحسبنا أن نقول إن وزارة المعارف هى الهيئة الوحيدة التى تستطيع أن تخلق مثل هذا الأدب . وما دامت المركزية أصلاً من أصول إدارة التعليم عندنا فوزارة المعارف هى التى تستطيع أن تلتخب مدرسين وكاتبين يحبسهم على عمل مثل هذا . ولا غناء عندنا فى جهود فردية محدودة يقوم بها الفينة بعد الفينة أفراد متحمسون

والتمثيل المسرحى نفسه وسيلة تكفل حرص الأطفال على تعلم اللغة . ولنا نقصد بذلك أن يكون له — كما له اليوم — إدارة خاصة مركزية . ولا أن يكون صراً على بضعة أفراد من التلاميذ يمثلون فصلاً أو فصلين فى العام لأن ذلك قد ساءل المدارس الثانوية عندنا منذ نشأتها إلا أنه لم يفد اللغة إلا قليلاً . وإنما نقصد بالتمثيل المسرحى أن يكون لسلك مدرس انجاء خاص يحجب إلى تلاميذه

يرددونه كالبنغاوات ابتغاء النجاح في الامتحان . بل الخير كل الخير أن ندفع بهم في غمار المأثور من الأدب نعلمهم الأصول وتركيبهم في نفس الشعر ونفس القصص ونفس المقامات حتى يخلق كل واحد منهم لنفسه مزاجاً أدبياً أو فنياً خاصاً فيما يتصل بشئون اللغة والأدب

ولعلنا نستطيع بعد الذي أسلفنا من وصف الاتجاه الحديث في تعليم اللغات أن نفس موطن العلة في أساليبنا الحاضرة . وبين الذي فصلناه وبين الذي يقع الآن اختلاف عريض ليس من سبيل إلى تلافيه حتى تتكثر الجهود بعد الجهود ، وحتى تقوم مدرسة من مدارس الفكر لتخلق جوّاً آخر غير الذي تعيش فيه اللغة . وقد تحدثت في أصول التعليم عندنا تقاليد ما زالت تنكر على الطفل حياته الوجدانية الخاصة ، فلم يعم إلا القليل يعمنون القصص التي توائم الطفولة . ولم يدرك أحد بعد العلاقة بين اللامب الحر وبين اللغة ، ولا نحسب أننا في حالة تتوقع فيها أن نقيم العلاقة بين اللغة وبين الموسيقى والفن ، فإن هذا أمل غير قريب التحقيق

على أن الذي نراه قريب التحقيق هو شيء واحد ينتظم كل ما ذكرنا . فإن المعلمين يخلطون دائماً بين الوسيلة وبين الغاية . ويؤمنون بأن الذي يتخذوه وسيلة إنما هو غاية في نفسه . فقد اتخذ المعلمون الأقدمون النحو وعلوم البلاغة وسائل لتقويم اللسان وسلامة المعنى ، ويتخذها المعلمون المحدثون غايات في نفسها يعقدون فيها أعسر الامتحانات . ولو أنهم علموا أن إحسان القول وإتقان القراءة والكتابة هي نفسها الغايات لتغيرت نظم التعليم عندنا ولتبدأ جو صالح يتحول فيه تعليم اللغات إلى المرتبة التي نبي

ولشد ما يعجب المرء حينما يمر بنظرة عجي على الكتب التي يدرسها تلاميذ المدارس الثانوية في مختلف الفرق . وأشهد أني لأتوعد كثيراً أن أعقد موازنة بين الكتب العربية التي يدرسونها والكتب الإنجليزية . ولعلك تدرك قليلاً من مثل هذا التردد إذا علمت أن التلميذ في السنة الأولى يقرأ حوالي أربع مائة صفحة من الإنجليزية وهو يقرأ مثل هذا المقدار في السنة الثانية ، ويزيد على الخمسمائة في الثالثة ثم يربى على السبائة في الرابعة . أما إذا سألتني ماذا يقرأ هؤلاء في العربية أجبتك بأن التلميذ لا يقرأ نصف هذا

ممارسة التمثيل . فإذا هو أمدم بالقصص المسرحية العربية وعاونهم على تمثيلها من غير مسرح ولا ستائر كان في ذلك إدراك للفرض من تعلم اللغة ، وكان فيه رياضة جمالية سامية . وخیال الطفولة ضمين بأن ينشئ مسرحاً خيالياً ، وكفيل بأن يسير بالقصة إلى حد كبير من الإتيان

والتمثيل راسخ كوسيلة من وسائل تعليم اللغة لأنه يقوم على التقليد ؛ والتقليد ميل غريزي هو الأساس الأول لدروس كسب المهارة . فإذا اتخذنا التمثيل ذريعة لتعليم اللغة أوفينا على الغاية مما نرى إليه من تعليم العربية ؛ وأدركنا في نفس الوقت غرضنا الحسى أو الجمالى الذي أسلفنا الحديث عنه

ومثل ذلك فكرة الموسيقى والأناشيد وإلقاء الشعر والخطب عند الأطفال . والذي قلناه عن التمثيل ينطبق جميعه على كل هؤلاء ؛ وليس يكفينا في هذه المرة أيضاً أن تكون هناك إدارة مركزية للموسيقى تلقن عدداً من الأطفال بضعة أناشيد كل عام ، بل الذي يعني أن تكون الأناشيد والموسيقى من بين الكفايات التي يحسنها المدرسون حتى يوفقوا بينها وبين دروس العربية ، وحتى يتخذوها مُمِيناً على إحسان التوقيع وإتيان الخطابة ، والسيطرة على مخارج الحروف والكلام . دع عنك ما تراء الطفولة في كل ذلك من الترفيه ، وما تجده من الدواعي إلى الاستزادة من معنى اللغة

فإذا درج الطفل إلى الصبا بعد ذلك كان في الأدب مجال واسع لتجيب اللغة إليه . والأدب الذي ندعو إلى دراسته هو الأدب الذي لا يقف جامداً عند سير الشعراء والأدباء ، ولا يتغير بمصور السياسة ، ولا تنقطع بصاحبه الأسباب دون تذوق الجمال . والنأشئ الذي قضى أيام الطفولة في جو خيالي من القصص والفناء والتمثيل خليق به أن يصل ذلك بالأدب الموروث ، وأن يتأق لأدب الرجال بما يزخر من شعر سام وبما يحتوي من نثر على منتظم ينبئ أن يكون من أغراض الأدب أن نحيط المتعلم علماً بما أزيئت به اللغة من جمال ، وأن نروض الفتيان على أسرار القول المتسق . والمبث بعينه أن نحاول تحفيظهم أين ومتى مات الأدباء والمتفتنون . والمبث بعينه أن نفرض عليهم استذكار سير الأدباء وما انصف به شعر كل منهم من جزالة اللفظ ، وما يترقق في كلامهم من رقة المعنى ولطف الروح ، وألا يكون ذلك إلا كلاماً